مستقبل الأمل

موجات الأمل واليأس في الثقافة العربية الحديثة

نادر كاظم

جامعة البحرين

- 1 -

في أبريل 1985 عقد مركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورج تاون الأمريكية مؤتمراً تحت عنوان لافت: "العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة". وهو ذاته عنوان الكتاب الذي ضمّ أوراق هذا المؤتمر وصدر في أكتوبر من العام 1986 عن مركز دراسات الوحدة العربية(1). وكان المفكر العربي الراحل هشام شرابي هو المشرف على هذا المؤتمر، وهو محرر الكتاب وكاتب مقدمته. وهو كتاب يسعى، بحسب هشام شرابي، إلى استشراف ما سيكون عليه العقد العربي القادم، ورسم صورة للمستقبل القريب ومعالم الطريق لمستقبل المجتمع العربي. إلا أن المقدمة كانت خطاباً في الأزمة، وهو خطاب يستبطن مرارة الانتكاسات والآمال العربية المجهضة والمحطّمة، بل إنه يُفتتح بالتركيز على "طبيعة الأزمة التي يعاني منها الإنسان العربي إنسانياً ومادياً"(2)، وعلى حجم التحديات التي على المجتمع العربي أن يجابهها "إذا كان لهذا المجتمع أن يستمر"! وهكذا أصبح بقاء المجتمع بحدّ ذاته موضع تساؤل. وبما إن الكتاب يستشرف "المستقبلات البديلة" في "العقد العربي القادم"، فإن انهيار هذا المجتمع قد يكون أحد "المستقبلات البديلة" في "العقد العربي القادم"!

والحقيقة أن الاهتمام بـــ"المستقبلات العربية البديلة" لم يبدأ بهذا المؤتمر، بل بدأ في أوائل الثمانينات من القرن العشرين حين دشّنت جامعة الأمم المتحدة في العام 1981 مشروع "المستقبلات العربية البديلة"، والذي صدرت أولى إسهاماته في كتاب "صورة المستقبل العربي"(3) في يناير 1982. وفي الوقت ذاته، كان مركز دراسات الوحدة العربية قد تبنّى مشروع "استشراف المستقبل العربي"

الذي امتد الإعداد له على مدى سبع سنوات، وظهرت أولى إسهاماته في العام 1981/1980 في دراسة بعنوان "ثلاثة احتمالات للصورة المستقبلية للعالم العربي عام 2000"، إلا أن التقرير النهائي لهذا المشروع لم يكتمل إلا في العام 1988 بصدور كتاب "مستقبل الأمة العربية"(4).

كما أن هذه ليست المرة الأولى التي يشير فيها مفكر عربي بحجم هشام شرابي إلى حجم التحديات والأزمات التي تواجه المجتمع العربي، ولا هي المرة الأولى التي يقرر فيها مفكر عربي بأن المجتمع العربي يمرّ "بأصعب مراحل تاريخه"؛ لأن الثابت أن كل جيل كان يتعامل مع تحديات حاضره على أنها تحديات صعبة، وربما ذهب به الحماس إلى درجة التقرير بأنها من أصعب المراحل التاريخية التي يمر بها هذا المجتمع. لكن اللافت أن خبرة الأجيال السابقة كانت تستبطن، دائماً، روح التفاؤل والأمل بقدرتها على تجاوز هذه التحديات وعلى إنجاز حلمها التاريخي المنتظر. كانت أحلام هذه الأجيال كبيرة بحجم حماستها وشجاعتها وجرأتها في أخذ المبادرة والمضي إلى الأمام، إلى المستقبل، إلى نهاية الطريق. في حين أن الأمر اختلف بصورة جذرية في خطاب هشام شرابي، فبقدر ما يكشف هذا الخطاب عن وعي بحجم التحديات التي تواجه المجتمع العربي، فإنه يستبطن، كذلك، مرارة الإحباط والفشل والتحسر على تلك الآمال المجهضة بدءاً من حلم الاستقلال الذي توهمنا أنه تحقق، إلى حلم الوحدة العربية الذي تحطم على صخرة "واقع الاثنتين والعشرين دولة المتخاصمة أو المتحاربة أو السائرة كل منها في طريقها، واقع الوطن الذي أصبح أوطاناً متبعثرة، تابعة، خاضعة"، إلى حلم الديمقراطية التي قضي على بداياتها الأولية والمبشرة في هذا البلد أو ذاك، وحلّ محلها "السلطنات الثورية والتقليدية، واختفت الحقوق الأساسية للمواطن، واضطهدت الأحزاب، وهيمنت أجهزة المخابرات"، إلى حلم النهوض الاقتصادي "الذي وفّرته فرصة تاريخية نادرة كان يمكن من خلالها القضاء على التخلف الاقتصادي"– وهو يقصد الطفرة النفطية في السبعينات–، إلا أنه انتهى إلى "قيام بنية اقتصادية مريضة تابعة"(5).

كيف سيكون، إذن، "العقد العربي القادم"؟ وما هي تلك "المستقبلات البديلة" التي تنتظره؟ يقرر هشام شرابي أن هذه المستقبلات ستقررها "أحداث العقد القادم"، وهو عقد نعرف، الآن، أنه ابتدأ بكارثة قومية: غزو العراق للكويت، واختتم (هل اختتم حقاً؟!) بكارثة عالمية أُتخذت ذريعة للحرب على أفغانستان في العام 2001، وعلى العراق في العام 2003: حدث 11 سبتمبر 2001. فإذا كانت هذه هي بدايات "العقد العربي القادم" و"خواتيمه" فكيف سيكون مصير "مستقبلاته البديلة"؟ الجواب عن هذا السؤال سيأتي في صورة إجابة جماعية ستمتد صفحاتها في "المنتدى القومي بالأهرام"

على مدى عام كامل من مطلع 1985 حتى مطلع 1986، وتدور حول تقرير مصير "أهم قضية قومية بالمنظور المستقبلي"، وهي "قضية الخروج من المأزق العربي الراهن"(6)، وهو مأزق معقد ومشكلاته متداخلة إلى درجة أن أحد المشاركين في المنتدى، وهو عبد الحميد البكوش، كان يقرر بأننا في مأزق حقيقي استثنائي تتضاءل أمامه كل مشكلات الأمة العربية ومآزقها السابقة التي "لم تكن بدرجة السوء التي هي عليها اليوم"(7). وأكثر من هذا، فإن الأمة تقف، اليوم، عاجزة عن حل هذه المشكلات، فربما نكون اليوم، في العام 1986، "لا نجهل مشاكلنا، ولسنا بغافلين عن الحلول المتاحة للقضاء عليها، ولكننا أعجز ما نكون عن الحركة والعمل في سبيل هذه الحلول"(8)، وهي مشكلات وعقبات، كما يقول لطفي الخولي، تترسّخ "وتزداد عفونتها في الجسم العربي مع مرور الأيام"(9).

وسيتحوّل هذا "المأزق العربي"، في نظر كاتب آخر هو فوزي منصور، إلى كابوس عربي(10). ويقرر فوزي منصور أنه "ليس كل شيء على ما يرام في الوطن العربي"، وهو كذلك بسبب وجود أزمة ومأزق و"إحساس بتحلّل وشيك" و"تفكك كامل على الصعيد القومي"(11). وبناء على هذا فإن العرب، كما يقول، "يُدفعون الآن فيتدافعون خارج التاريخ"(12). المشهد الذي يرسمه فوزي منصور هنا قاتم جداً، إلا أنه ليس قاتم بشكل مطلق، فالكاتب يتحدث، على غرار هشام شرابي في العام 1986، عن "بدائل مستقبلية"، لكنه يفتتح بشارته عن هذه البدائل برهن تحققها بواحد من تلك الأحلام المجهضة التي استذكرها شرابي بمرارة، وهو حلم "التوحيد القومي"، يقول: "ليس للوطن العربي ككل، ولا للأجزاء المكونة له، مستقبل خارج مشروع توحيدي قومي"(13). والحاصل أن هذا المشروع يتباعد كلما تقدمنا في الزمن، الأمر الذي يعني أنه لا مستقبل للوطن العربي!

إلا أن علينا أن ننتظر مثقفاً عربياً آخر ليقدم لنا مرثيته المتكررة لهذا المشروع (الوحدة القومية) ولكل المشاريع الكبرى التي سبقته والتي تلته وكأننا نسير في مسار انتكاسي يتزلق من "النهضة إلى الردة"، وهو ذاته عنوان كتاب جورج طرابيشي الصادر بعد عقد من كتاب "خروج العرب من التاريخ" أي في العام 2000. يفتتح جورج طرابيشي كتابه بذات الرثاء والمرارة والتحسر على تلك الآمال المجهضة والرهانات الخاسرة، فيقول: "إنني أنتمي إلى جيل الرهانات الخاسرة، فجيلنا قد راهن على القومية وعلى الثورة وعلى الاشتراكية – وهو يراهن اليوم على الديموقراطية – لا لقيم ذاتية في هذه المفاهيم، بل كمطايا إلى النهوض العربي وإلى تجاوز الفوات الحضاري، الجارح للنرجسية في عصر تقدم الأمم"(14). وهذا افتتاح لا يخلو من مرارة وأسى وأسف وتحسّر على سنوات العمر التي كانت

تتصرم من أجل رهانات تكشّفت، لاحقاً، أنها كانت رهانات خاسرة بدءاً من الرهان على القومية وانتهاء بالرهان على الديمقراطية.

وعلى الصعيد ذاته، لم يكن محمد عابد الجابري، رائد المراجعة النقدية المعرفية للمشروع النهضوي العربي وغريم جورج طرابيشي الذي قضى هذا الأخير ربع قرن من الزمان في نقد مشروعه تحت عنوان "نقد نقد العقل العربي"، لم يكن الجابري بمأمن من الإحساس بحجم هذه الرهانات الخاسرة، إلا أنها، بالنسبة إليه، لم تكن رهانات خاسرة – وهذه ربما واحدة من حسنات منهجيته المعرفية التي حمته من هذا الإحساس السلبي المشلّ–، بل هي مشروعات طموحة لكنها لم تتحقق. وعدم تحقق "المشروع النهضوي العربي" هو ما يحرّك في نفسه الإحساس بالمرارة. وهو إحساس يتكشف حين يقمّص شخصية نهضوية متخيّلة من القرن الماضي. فهو يفترض أنه لو قُدّر لأحد روّاد النهضة العربية أن يبعث، اليوم، حيّاً ليرى ما تحقق من مشروع النهضة العربية "لهاله الأمر ولاحتار في إصدار حكم عام على ما سيسجله من فروق بين ما كان يحلم به روّاد ذلك المشروع والمبشرون به، وبين ما آل إليه اليوم"(15). وفي صورة توحي بأن الزمن العربي قد توقّف، سيلاحظ هذا النهضوي العائد أن "القضايا الأساسية التي شكلت قوام فكر النهضة العربية في القرن الماضي مازالت قضايا حية قائمة كمطالب وطوحات مع نهاية القرن: فالوحدة العربية، والجامعة الإسلامية، والوقوف في وجه التدخّل الأوروبي، وتحرير المرأة، ونشر العلم (...). هذه القضايا التي كانت تشكل في القرن الماضي قوام فكر النهضة وعنوان اليقظة، بالنسبة للعرب والمسلمين، مازالت مطروحة اليوم". إلا أن استمرار هذه القضايا لا تعكس حيوية الفكر والمجتمع بقدر ما تعكس استعصاء تحققها طوال قرن. واستمرار هذه الوضعية لا يعني أن "المشروع النهضوي العربي" كان بمأمن من الانتكاسات، بل إن هذه الانتكاسات هي التي تحمل الجابري على الاعتقاد بأن العرب يمرون اليوم "بمرحلة انتقالية دقيقة"، وهي مرحلة تأتي بعد انتكاسات مسّت كل القضايا الكبرى الأساسية التي عاش العرب عليها طوال قرن من الزمان كما يقول، وهي: مقاومة هيمنة الغرب، وتحقيق نوع من الوحدة العربية، وتحرير فلسطين. ففيما يتعلق بالقضية الأولى "ها هم العرب اليوم يقفون أمام هيمنة الغرب بلا أمل في التحرر منها في المستقبل المنظور". وفيما يتصل بالقضية الثانية ها هي الدول القطرية العربية "تفرض نفسها كواقع يعاند أي تفكير في الوحدة معاندة تامة". وأما القضية الأخيرة فإن إسرائيل "قد انتزعت اعترافهم [العرب] بينما يواجه الفلسطينيون مصيراً مجهولاً"(16).

سيصاب ذلك النهضوي العائد، أمام كل هذه الانتكاسات، بالعجب كل العجب، وسينتهي إلى نتيجة لا تقل بؤساً عن تلك التي توصّل إليها جورج طرابيشي، وهي أن "تجربة قرن بكامله" ستقوده إلى الإقرار بأن توقع تحقق مشروع النهضة العربية في المستقبل أصبح "بعيد المنال"، وكل ما سيستطيع فعله هو "أن يشيّد لنفسه أماني وطموحات واقعية تأخذ بعين الاعتبار ما يجب أن يقيمه العاقل من الناس من فروق بين الحلم والواقع"(17) أي القبول بواقع الحال على بؤسه.

وقبل هذه الإشارة الأخيرة من الجابري بعقد كامل من الزمان، كان أدونيس يقدّم، سنة 1986، مرثيته للمشروع النهضوي الذي يتحدث عنه الجابري، ولكل الحركات التقدمية/الثورية من بعده. فبالنسبة لأدونيس فإن مسار ما سمي بالنهضة العربية "لم يفتح أفقاً، بل انتهى، على العكس، إلى ما يشبه الضياع. وما كان يسمى بـــ"النهضة"، وما سمي في أعقابها بالحركات "التقدمية" أو "الثورية" انتهى إلى حروب داخية عربية–عربية، بحيث يبدو المشهد العربي اليوم صراع طوائف وعشائر وقبائل"(18).

نحن هنا أمام مرثية طويلة كانت تتجلّى بوجوه عديدة منذ ثمانينات القرن العشرين، وهي مرثية تستبطن "حديث النهايات" والإحساس المثقل بالحسرة والألم والمرارة والخيبة والتحلّل الوشيك لأمة بأكملها. هكذا وكأن هذه الأمة قد وصلت إلى نهاية طريق مسدود، حيث تهاوت كل الرهانات العظيمة المعقودة على النهضة والتقدم والتنوير والوحدة القومية والاشتراكية والثورة والديمقراطية ...إلخ، فكل هذه الرهانات تبدت وكأنها رهانات خاسرة وتحطمت على صخرة واقع عربي "معاق" بشكل بنيوي وميؤوس منه وغير قابل للإصلاح، أو هو مصاب بـــ"عطل عميق" يعكس "قصوراً سياسياً عاماً في السلوك السياسي العربي العام رسمياً وشعبياً"(19).

هل ابتدأ، إذن، عصر جديد؟ نعم، هذا ما يقوله هشام شرابي حين يصادق على أطروحة سمير أمين الذي يذهب فيها إلى القول إن "عصر النهضة العربية الذي انطلقت فيه حركة الوعي في مطلع القرن التاسع عشر قد انتهى (...) وإن زعامة البرجوازية الوطنية قد انتهت بانتهاء عصر النهضة"(20). وبانتهاء عصر النهضة العربية تكون "مرحلة تاريخية جديدة قد بدأت"، إلا أن مستقبل هذه المرحلة لن يكون واعداً، بل هو مستقبل بلا وعود أصلاً، فلا وجود لزعامة جديدة تحل محل الزعامة البرجوازية الوطنية التي انتهت، وستكون "المرحلة التالية مرحلة فراغ" لن تتمكن أي حركة من ملئه بما فيها "الحركة الدينية". ما ينتظرنا، إذن، بعد كل هذه الرهانات الخاسرة هو "مستقبل فارغ"، فارغ من

الوعد بـــ"المهرجان"، من الأمل بأن ما ينتظرنا هو غد أجمل ومستقبل أفضل. هل هذه، إذن، هي نهاية الطريق؟

– 2–

إن الفكرة القائلة بأننا وصلنا، في العالم العربي، إلى نهاية الطريق، أو إلى طريق مسدود، هذه الفكرة ليست من بنات أفكار الثمانينات من القرن العشرين، بل إنها لم تكن سوى فصل في مسيرة الإحساس العام بالفشل والخيبة والسقوط، وهو فصل ابتدأ مع الهزيمة القاسية في حرب 1967. إلا أن الصحيح، كذلك، أن هذا الإحساس العام بخيبة الأمل إنما يعبّر عن موجة مضادة كانت تتصاعد مع نهاية كل موجة أمل عربي كبير بالتنوير أو بالثورة أو بالتحول الديمقراطي، وذلك حينما يتكشف أن هذا الأمل الكبير الذي راهن الناس عليه ورهنوا وجودهم به قد فشل وتهاوى ووصل إلى طريق مسدود، عندئذٍ تطل برأسها أحاسيس الخيبة واليأس والمرارة وحتى الإحساس بالعار، نعم العار! وهذا ما حدث حين شعر الثوريون والراديكاليون العرب أن مشروع التنوير والنهضة برمته قد تحطّم على صخرة نكبة العام 1948 وانهزام الجيوش العربية مجتمعة وضياع فلسطين. وكان لا بد من الثورة والتغيير الشامل والانتقام لمحو هذا العار. كما صار في حكم الثابت أن هزيمة العرب في يونيو 1967 كانت هي الحد الفاصل، كما يقول محمد عابد الجابري، "بين عهد الثورة والأمل وعهد الهزيمة والإحباط". ويذهب الجابري إلى أبعد من هذا حين يجزم جزماً يقينياً بأنه "منذ حزيران/يونيو 1967 لم يظهر نص عربي، شعري أو نثري، أدبي أو علمي أو أيديولوجي، يتحدث عن الحاضر والمستقبل حديثاً يشعّ منه بريق الأمل، أو يعبّر عن طموح أو يطرح مشروعاً للمستقبل"(21). وامتلأت الساحة العربية، في سياق هذا الإحباط العام والمأساوي والوجودي، بما أسماه الجابري بـــ"أدبيات السقوط"، فكأن المجتمع العربي كان قد هوى من شاهق بعد هزيمة 1967. وفي سياق هذا الإحساس العام والفادح بالنهايات وبالهزيمة الكبرى، بدأ تساؤل جديد يطرح نفسه بقوة، تساؤل عن أصل التأزم أو علة الأزمة، أزمة هذه الأمة التي تعثرت في بناء نهضتها، ومنيت بهزيمة قاسية، بـــ"أم الهزائم" كما سمّاها محمد جابر الأنصاري. وعندئذٍ شرعت النخب العربية "في مساءلة الهزيمة".

وفي سياق هذه المساءلة، نظّمت جمعية الخريجين بجامعة الكويت في أبريل 1974 ندوة تحت عنوان "أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي"، وهي ندوة اكتسب أهميتها من نوعية السؤال الإشكالي الذي أثارته، ومن اللحظة التاريخية التي انعقدت فيها، ومن نوعية المفكرين الذي شاركوا فيها. ويمكن القول إن الصفّ الأول من نخبة المفكرين والمثقفين العرب، آنذاك، كانوا مشاركين في

هذه الندوة: زكي نجيب محمود وقسطنطين زريق وفؤاد زكريا وأدونيس وأنور عبد الملك ومحمود أمين العالم وإبراهيم أبو لغد وعبد الكريم غلاّب وشاكر مصطفى وآخرين. ويشار، في هذا السياق على نحو أخص، إلى الورقة التي قدّمها شاكر مصطفى الذي أشرف على أعمال الندوة. فقد أراد هذا الأخير سبر أغوار "الأبعاد التاريخية لأزمة التطور الحضاري العربي"(22)، وطرح، أثناء ذلك، تساؤلاته المأساوية عن مصير هذا "التطور الحضاري العربي": لماذا تطلب وفاق العرب مع العصر كل هذا الوقت الطويل ودون كبير جدوى؟ هل وصلت الأمة حقاً مرحلة الشيخوخة؟ أم أضاعت الطريق؟

كانت إشكالية المستقبل مطروحة بقوة في هذه الندوة، فكثير من المشاركين كانوا متفقين على أن "أزمة التطور الحضاري العربي" تكمن في طبيعة علاقتنا بالزمن، حيث كان الفكر العربي مشدوداً إلى الماضي بقدر بعده عن التطلع إلى الأمام ومدّ البصر باتجاه المستقبل. إلا أن في هذا الحكم كثيراً من التجنّي، وهو تجنٍ لا لأنه يعكس استخفافاً بحجم الأزمة وكأنها أزمة بسيطة وتختصر في طبيعة علاقتنا بالزمن أو كأن الزمن عبارة عن تقدّم وتتابع في "خط مستمر متصل"(23) ويتجه صعوداً من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، أقول إن في هذا الحكم كثيراً من التجنّي لا لهذا السبب فقط، بل لأن الفكر العربي الحديث وعلى مدى قرنين كاملين لم يكن مفعماً بشيء بقدر ما كان مفعماً بالأمل في هذا المستقبل، وأن البؤس الذي يسم الفكر العربي الراهن وإحساسه بأننا وصلنا إلى "نهاية الطريق"، وكأن الشيخوخة بدأت تدبّ في هذه الفكرة بالذات، فكرة الأمل في أنه مازال هناك "بدائل أخرى"، وأن المستقبل سيكون أفضل أو أنه حمّال بالمفاجآت السارة، أقول إن هذا البؤس ليس سوى فاصل في سيرورة من الأمل المتصل على مدى قرنين كاملين. إن فهماً أعمق لسيرورة الأمل في الفكر العربي الحديث من شأنه أن يساعدنا على تفسير حالة البؤس وشيخوخة الأمل التي كان يعيشها الفكر/الفعل العربي إلى مرحلة ما قبل "الربيع العربي" من جهة، وعلى وصل "ثورة الأمل" التي فجّرها هذا الربيع مع مطلع العام 2011 بجذورها البعيدة والقريبة في "ذاكرة الأمل" العربية الممتدة من جهة أخرى. وهذا يتطلب إعادة رسم مسار الطريق الطويل وخطوط السير العريضة لـــ"ذاكرة الأمل" العربية الممتدة على مدى قرنين كاملين منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى انفجار "الربيع العربي"، أي منذ "بداية الطريق" في الحالتين، أي منذ بداية الأمل وما اتسم به هذا الأمل من عنفوان وشجاعة وجرأة كشأن البدايات الحقيقية دائماً.

للأمل ذاكرة عربية ممتدة، وعمرها متطاول بتطاول العصر الحديث في التاريخ العربي. وهي ذاكرة مرّت بثلاث محطات أساسية أو بثلاث موجات كبرى. وقد بدأت الموجة الأولى بالجيل الأول،

جيل الروّاد من المثقفين العرب النهضويين والتنويريين الأوائل. وهو الجيل الذي اجترح البداية الشجاعة، وافتتح، بفضل ذلك، فضيلة السير في هذا الطريق الطويل منذ مطلع القرن التاسع عشر حين تراءى، لدى هذا الجيل، بريق الأمل في النهضة والتنوير والتقدّم والإصلاح واللحاق بركب العالم المتحضّر آنذاك. لقد كان هذا هو الأمل العربي الكبير الأول في العصر الحديث، لكنه كان، أيضاً، الأمل العصي بحيث تعذّر إنجازه على الرغم من اتساع مداه الزمني (حوالي قرن ونصف) وتعاقب أجيال عديدة انخرطت في مجراه.

لقد فهم الجيل الثاني الذي ركب موجة الأمل الكبرى الثانية في تاريخ العرب الحديث، أن السبب وراء استعصاء النهضة والتنوير والإصلاح في العالم العربي إنما يرجع إلى ارتهان هذا العالم لعائق مزدوج يتمثّل في الاستعمار وأعوانه "الرجعيين" في المنطقة، فكان لا بد، من أجل تجاوز هذا العائق من الرهان على التحرر الوطني من الاستعمار، وعلى تقويض أنظمة الاستبداد "الرجعية" المستحكمة، وبالتوسّل بالعنف لو تطلب الأمر. وهنا صعدت موجة الأمل الثانية، أمل التحرر والثورة والتغيير الجذري والشامل، أي أمل الوصول إلى النهضة، إلى نهاية الطريق من خلال قفزة واحدة بما إن الثورة عبارة عن تحويل سريع وجذري وشامل لبنية الدولة والمجتمع معاً. إلا أن الثورة لم تكن سوى قفزة في الفراغ، وبقي هذا الأمل – كما كان سلفه – عصيّا على التحقق. وذلك على الرغم من الاستقلال الاسمي الذي نالته كل الأقطار العربية عدا فلسطين، وعلى الرغم من كل الثورات والانقلابات المتلاحقة التي أطاحت بأنظمة عديدة في المنطقة بدءاً من النظام الملكي بمصر في العام 1952 وانتهاء بالنظام الملكي بليبيا في العام 1969.

وحين ارتطم المدّ الثوري "التقدمي" بحائط هزيمة 1967، بدت الحاجة ملحة إلى مساءلة الهزيمة والنقد الذاتي والبحث عن السرّ وراء هذا الفشل المزمن في هذه المنطقة. وعندئذٍ صعدت موجة الأمل الكبرى الثالثة، والتي تأسست على الاعتقاد بأن إنجاز النهضة يتطلب تحويلاً ضرورياً في بنية الدولة العربية التي ورثها أولئك الثوريون "التقدميون" من حقبة الحكم الاستعماري، إلا أنهم زادوا في تعميق طابعها التسلطي البوليسي على نحو خرافي. وعلى هذا، فإن التحول من الديكتاتورية والدولة التسلطية إلى الديمقراطية يتطلب تحويلاً في بنية هذه الدولة، إلا أن التحويل المطلوب هذه المرة ليس تحويلاً ثورياً أو عنيفاً كما كان إبان الزمن الثوري، بل هو تحوّل ديمقراطي سلمي، وهو تحوّل يتطلب وجود مجتمع مدني عربي قوي ومعافى بحيث يضطلع بدوره في هذه المهمة التاريخية المزدوجة وهي إنقاذ هذه البلدان من الاستبداد عبر انتقال هذه الدول التسلّطية إلى الديمقراطية، وتحديث هذه المجتمعات "التقليدية".

هذه هي ذاكرة الأمل الممتدة في تاريخ العرب الحديث، وهي ذاكرة انتظمت، في مجرى هذا التاريخ الطويل، على شكل حكاية تتألف حبكتها من موجات كبرى ثلاث تبدأ بموجة النهضة والتنوير والإصلاح مع مطلع القرن التاسع عشر، ثم تتصل بموجة التحرر والثورة والتغيير الشامل منذ منتصف القرن العشرين، ثم تتواصل مع موجة التحول الديمقراطي السلمي القادمة على حصان المجتمع المدني بدءاً من أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات.

إلا أن موجات الأمل الكبرى هذه عادة ما كان يتخلّلها موجات مضادة من اليأس والإحباط. وهي في هذا لا تختلف عن أية موجة ترتطم بحائط مسدود أو حتى بسطح الماء بعد أن تكون قد بلغت أقصى ارتفاع لها، وسيكون الارتطام/السقوط قوياً ومدوّياً بقدر ما تكون الموجة قوية وارتفاعها شاهقاً. لقد انفجرت المنطقة، منذ منتصف القرن العشرين، بعد أن ارتطمت موجة أمل التنوير بنكبة 1948 الفاجعة. ثم شعر الجميع أن هذه الأمة قد هوت من القمة إلى قاع الفشل بعد هزيمة 1967 التي كانت، بالدرجة الأولى، هزيمة للمدّ الناصري، وللأمل الثوري "التقدمي" برمته في المنطقة. ولاحقاً راهن دعاة المجتمع المدني والتحول الديمقراطي على أن عصر الثورات انتهى، إلا أن موجة الديمقراطية الثالثة التي كانت تجتاح العالم مع مطلع التسعينات سوف تصل إلى سواحل البلدان العربية لا محالة. وحين انحسر موج المدّ الديمقراطي في العالم وانقضت التسعينات بكل آمالها دون أن تتحول حتى دولة عربية واحد نحو الديمقراطية، عندئذٍ راح البعض يتصيّد أي إصلاح هنا أو "انتخابات بدون ديمقراطية" هناك من أجل أن يقنعوا أنفسهم بأن المنطقة تمرّ بالفعل بموجة من التحول الديمقراطي. إلا أن الحاصل أن انحسار مدّ التحول الديمقراطي قد عمّم، مجدداً، الإحساس العام بخيبة الأمل والإحباط من هذا الاستعصاء الديمقراطي المزمن أو من هذا العجز الديمقراطي البنيوي الذي يبدو عصيّاً على الإصلاح في هذه المنطقة. وهكذا فبقدر ما تكون البدايات مفعمة بالأمل، فإن النهايات تعمّم الإحساس العام بالخيبة والإحباط وبأننا قد وصلنا إلى نهاية طريق مسدود، وبأن كل هذه المسافات الشاسعة التي قطعتها البلدان العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى اليوم، وكل الجهود التي بُذلت، وكل التضحيات التي قدّمتها أجيال تلو أجيال على مدى قرنين كاملين، كل هذا يتبدّى وكأنه كان يذهب سدى.

انفجرت انتفاضات "الربيع العربي" في ظلّ هذه الأجواء المشحونة باليأس والإحساس بخيبة الأمل، وعلى نحو مباغت واستثنائي بكل المقاييس. لقد انفجرت هذه الانتفاضات والاحتجاجات الواسعة في وقت كان الجميع مصاباً باليأس، وكانت النخب العربية قد أيقنت لا بنهاية عصر الثورات فحسب، بل باستحالة التغيير وبالعجز الديمقراطي المزمن وغير القابل للإصلاح في هذه المنطقة، حتى إذا

استيأس الجميع وظنّوا أنه لم يعد هناك بديل في الأفق المسدود، عندئذٍ جاء "الربيع العربي" ليكسر أفق التوقع لدى الجميع، وينقذ مستقبل الأمل مجدداً، وليذكّر الجميع بأنه مازال ثمة بديل.

———————

هوامش

1–هشام شرابي (محرر)، العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة جورج تاون، ط:1، 1986)

2–المرجع السابق، ص11

3–إبراهيم سعد الدين وآخرون، صورة المستقبل العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط:3، 1989). وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في العام 1982.

4–خير الدين حسيب وآخرون، مستقبل الأمة العربية: التحديات والخيارات، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1988)

5–العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة، ص12

6–لطفي الخولي (محرر)، المأزق العربي، (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط:1، 1986)، ص5

7–عبد الحميد البكوش، الديمقراطية هي طريق الخلاص، ضمن كتاب: المأزق العربي، ص121

8–المرجع السابق، ص121–122

9–المأزق العربي، ص17

10–انظر: فوزي منصور، خروج العرب من التاريخ، ترجمة: ظريف عبد الله وكمال السيد، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ط:1، 1993)، ص6. نُشر هذا الكتاب أول مرة باللغتين الإنجليزية والفرنسية في أكتوبر 1990 تحت عنوان "مأزق العالم العربي: دراسة تحليلية تاريخية". وهو كُتب، في الأصل، في أواخر العام 1988 استجابة لدعوة جامعة الأمم المتحدة ومنتدى العالم الثالث ليكون الجزء الخاص بالعالم العربي من دراسة أشمل عن موضوع "الأمة والدولة والديموقراطية في العالم الثالث"، إلا أن الطبعة العربية من الكتاب لم تصدر إلا في العام 1993.

11–المرجع السابق، ص23

12–المرجع السابق، ص6

13–المرجع السابق، ص175

14–جورج طرابيشي، من النهضة إلى الردة: تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة، (بيروت: دار الساقي، ط:1، 2000)، ص7

15–م عابد الجابري، المشروع النهضوي العربي: مراجعة نقدية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط:1، 1996)، ص7

16–المرجع السابق، ص15

17–المرجع السابق، ص10

18–أدونيس، صحيفة السفير اللبنانية، بتاريخ 1986/2/28. نقلاً عن: مهدي عامل، نقد الفكر اليومي، (بيروت: الفارابي، ط:2، 1989)، ص94

19–محمد جابر الأنصاري، العرب والسياسة: أين الخلل، جذور العطل العميق، (بيروت: دار الساقي، ط:1، 1998)، ص51

20–هشام شرابي، النظام الأبوي والتبعية ومستقبل المجتمع العربي، ضمن كتاب "العقد العربي القادم "، ص259

21–المشروع النهضوي العربي، ص169

22–شاكر مصطفى، الأبعاد التاريخية لأزمة التطور الحضاري العربي، ضمن كتاب: شاكر مصطفى (إشراف وإعداد)، وقائع ندوة "أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي"، (الكويت: جامعة الكويت، جمعية الخريجين، 1975)، ص36

23–هذه واحدة من الانتقادات التي وجهها مهدي عامل لأبحاث هذه الندوة وخصص لها كتاباً واحداً من أهم كتبه: مهدي عامل، أزمة الحضارة العربية أم أزمة البرجوازيات العربية، (بيروت: دار الفارابي، ط:5، 1987)، ص120. وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في العام 1974.

صدر حديثا